تحليل نص كرامة أبي مدين شعيب
مقاربة بنيوية

د . محمد سعيدي
جامعة تلمسان

مقدمة:

نسعى في هده الدراسة الى تحليل و مساءلة نص كرامة من كرامات الولي

الصالح أبي مدين شعيب (1).

وقد صنعنا لهده الدراسة التصميم التالي :

1- هوية انتماء النص
2- الطرح المنهجي
3- الملفوظ السردي
1.3- الحلقة الأولى
2.3- الحلقة الثانية
3.3-الحلقة الثالثة
4- النظام الفاعلي
الخاتمة:

كرامات الولي الصالح أبي مدين شعيب:

« وكنت ادا سمعت تفسير آية من كتاب الله تعالى ، ومعه حديث واحد من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ' قنعت بهما وانصرفت الى خارج فاس لموضع خال من الناس اتخذته مأوى للعمل بما يفتح علي من الآية والحديث ' ثم أعود الى فاس فآخذ آية وحديثا وأخرج الى خلوتي . قال : وكنت إذا جلست بدلك المكان تأتيني غزالة تأوي إلي تشمني من قرني الى قدمي وتؤنسني ، فذهبت يوما ،كان يوم الخميس ، وبت بها يوم الجمعة فلقيني رجل من الأندلس أعرفه ، فسلم علي و كان عندي ثوب مودع عند رجل مد الأصحاب ، فسألته عنه وقلت له : بعه لي فاني أريد أن أدفع ثمنه لضيف وصل إلي من الأندلس .فباعه بعشرة دراهم و دفعها إلي . فطلبت الرجل فلم أجده فربطت الدراهم في خرقة جعلتها في مئزري وخرجت الى خلوتي على عادتي و كانت في طريقي عمارة فيها جملة كلاب ما رأيت منها أدى قط بل كانوا يدورون بي ويبصبصون لي، فلما قربت من القرية خرجوا إلي و اشتد نبحهم حتى خرج أهل القرية و حالوا بيني و بينهم ، ثم وصلت الى خلوتي فجاءت الغزالة فنظرتني نظرا منكرا ثم صارت تنطحني بقرونها و أنا أتقيها بيدي، ففكرت في أمري و ما رأيت من نباح

الكلاب علي و نطح الغزالة ، فقلت : إن دلك من أجل الدراهم التي معي . فحللت الصرة و رميتها فسكتت الغزالة و ركنت إلي على عادتها . فلما انصرفت الى فاس أخدت الصرة و حملتها معي . فلما دخلت فأسا لقيت الرجل الأندلسي فدفعتها له ثم خرجت الى موضعي و مررت بالقرية فبصبصت لي الكلاب على عادتها . فجاءتني الغزالة و شمتني من قرني الى قدمي و ركنت إلي على عادتها 2

1- هوية انتماء النص

صنف الرواة و المؤرخون هدا النص ضمن أدب المناقب أو ما اصطلح علي تسميته في بعض المصادر الفقهية و الأدبية و التاريخية بأدب الكرامات .

و قد شاع هدا النص على أنه ترجمة لكرامة من كرامات الولي الصالح أبي مدين شعيب ... فالكرامة جنس أدبي و فكري شبيه الى درجة كبيرة بعدد من الأشكال التعبيرية الشعبية كالحكاية الشعبية والحكاية الخرافية و الأسطورة .كما تتقاطع مع عدد من نصوص معجزات الرسل والأنبياء وسيرهم و بطولاتهم ...

لقد اقترن الفعل السردي الكراماتي بحياة وسير الفقهاء والأولياء الصالحين الدين يعود إليهم فضل إبداع و رواية

قصصهم و إشاعتها بين الناس و بين الأتباع والمريدين و الدين بدورهم تكلفوا بهده الحكايات –الكرامات- واجتهدوا على صيانتها وحفظها وإشاعتها في مجالسهم الخاصة والعامة ودلك تبركا و تيمنا بحكمة و كرامة الولي الصالح .

لقد شكلت عملية نشر و إشاعة الكرامات وأخبارها إشكالية كبيرة في دنيا الأوليائية حيث أن من الأولياء من تصدوا لإشاعة كراماتهم و أخبارهم و منعوا مريديهم البوح به ، فعملوا جاهدين من أجل كتمانها وكتمان أسرارهم و تجاربهم الروحية . وظلت هده الكرامات مكتومة ولم تشاع إلا بعد وفاتهم . في حين أن أولياء آخرين عملوا واجتهدوا وألحوا إلحاحا كبيرا من أجل نشر وإشاعة كراماتهم معتبرين دلك شرطا أساسيا من الأوليائية . وأن الولي الصالح لا يكون كذلك إلا إذا ثبت امتلاكه للكرامة ... فهي عنوان روحي لهوية الولي الطقوسية ومن ثم فهو مطالب بإظهار كراماته و روايتها للناس كما يقول الشيخ أبو يعزى رحمه الله « ما لهؤلاء ينكرون الكرامة ، و الله لو كنت قرب البحر لأريتهم المشي على الماء .» (3) فعلاقة الولي بالكرامة وإشاعتها و تفعيلها من حيث الإبداع و الرواية أو من حيث الاجتناب و الكتمان ليست

عادية وبسيطة ، « فمن الأولياء الصالحين من يعلم بكراماته ، ومنهم من لا يعلم بها ، و العالمون بها من يكتمها جهد استطاعته ، و منهم من يظهرها و يصرح بها ، كان رجل بالمغرب يظهرها و يقول « أظهروا الكرامة ليرغب في الطاعة «(4) .و مهما يكن من أمر ، فان « الكرامة هي ظهور أمر خارق للعادة من قبل شخص غير مقارن لدعوى النبوة ، فما لا يكون مقرونا بالإيمان و العمل الصالح يكون استدراجا ، و ما يكون مقرونا بدعوى النبوة يكون معجزة «(5).

و نشير الى أن الكرامة كجنس أدبي و فكري تختلف عن الحكاية الشعبية ، و عن الحكاية الخرافية و عن الأسطورة كما تختلف أيضا عن النبوة و قد أشار الى هدا الاختلاف السراج الطوسي حيث قال : «الآيات لله ، والمعجزات للأنبياء و الكرامات للأولياء و لخيار المسلمين»6)

تتموقع الكرامة من حيث الوظيفة و المغزى بين المقدس والدنياوي فهي خطاب ديني و اجتماعي لأن صاحبها الولي الصالح ، الرجل الصوفي بامتياز ، » هو إنسان و نبي أو نصف اله في وقت واحد ، فللصوفي بعض صفات النبي ، و يقوم ببعض وظائفه ، الصوفي ادن ، إنسان عادي و ليس إنسانا عاديا

، و نبي و ليس نبيا ، و نصف اله و ليس نصف اله ، انه يتماثل و يتفارق ، إن له هـويتين : هويـة الإنسـانية العاديـة ، و هويـة اللاعادية في آن واحد ...

و ليس هناك تناقض بين الهويتين ، و إنما هناك مزج بينهما (7). »

و قـد لا يتسـع المقـام للحـديث بإسـهاب عـن الكرامـة والولاية و ثقافتهما وأصولهما و أبعادهما العقيدية والاجتماعية و التاريخية و الأدبية في الفكر العربـي الإسـلامي ، فمسـعانا في هذه الدراسة يقف عند حدود قراءة تحليلية لنص كرامـة الـولي الصالح أبي مدين شعيب .

الطرح المنهجي:

نسعى إلى قراءة هدا النص وفق أطر منهجية ومعرفية اسـتمدت بعـض إجراءاتهـا التقنيـة مـن أعمـال مجموعـة مـن الباحثين الدين اشتغلوا على النص الأدبـي و الثقـافي في أمثـال فلاديمير بـروب(8) ، ألجـيرداس جوليـان كريمـاس(9) ، رولان بارث (10)، كلود ليفي ستراوس(11) ، تريفتان تودوروف(12) في الثقافة الغربية و كدا أعمـال مجموعـة مـن البـاحثين العـرب

أمثال عبد الكبير خطيبي(13) ، محمد مفتاح (14) ، عبد الفتاح كيليطو (15) ، علي زيعور(16) ، يمني العيد (17) و غيرهم ...

شكلت أعمال هؤلاء النقاد و المفكرين سندا معرفيا و منهجيا قويا لهذه الدراسة و التي تريد أن تكون « مهتمة بالمعطيات أو بالمحتوى كما هو ، فلنقفز إلى داخله و إلى صميمه ، دون أن نسأل عن الأسباب أو نسعى للتفسير لتتبع المنهج الظاهراتي ، لا تحليل و لا تعليل ، بل وصف من « الداخل « و لنحاول محاولة التقاط النسق [...]، و هكذا تأخذ قضية الأبطال في الأناسة العربية و في الكرامات (الحكاية الصوفية الخارقة) على أنها كل واحد ، أي وحدة جميعية ذلك أننا نود دراسة العناصر الأهم المكونة للكل و للشكل الجيد ، و معالجة الوظائف الرئيسية و الركائز أو الغرف في العمارة الواحدة المستقلة ،لنقل أننا نهتم بأخذ موضوعنا باحثين عن موضوعاته المحورية و مباحثه الأطر وحية (18)و البني الدينامكية التي تشكله و تعطيه وحدته ، غير أن المقاربة النصية تبقى تطرح عددا من التساؤلات الإجرائية، و لعل أهمها و أساسها في اعتقادنا على الأقل هو السؤال المفتاحي أي كيف تقتحم النص أو بلغة رولان بارث نفسه على سؤاله قائلا « يمكننا استخراج

و استنباط مجموعة « أ «من الرموز الابتدائية و مجموعة « ب « من الرموز النهائية الممكن ملاحظتها ،

و تكمن مهمة الوصف العلمي في شرح الكيفية التي تم بها المرور والانتقال من « أ « الى « ب « و تحديد طبيعة العلاقة الموجودة بين المجموعتين (إذا كانت العلاقة الوسائطية معقدة جدا ، و لا يمكن ملاحظتها ، فيمكن في هذه الحالة الحديث كما هو الشأن في علم سبير نطيقا عن العلبة السوداء) فأمام نص كنظام تسييري للمعلومات يمكن استلهام شكلنة ريفزين كمقاربة أساسية ، تحديد بادئ ذي بدء المجموعتين المحددتين الابتدائية و النهائية ، ثم العمل على اكتشاف و إبراز ما هي الطرق و التحولات التي تمت بفضلها اتصال أو انفصال المجموعة النهائية عن المجموعة الابتدائية و بصورة عامة ، لا بد من إبراز طبيعة المرور من حالة توازن الى حالة توازن أخرى ، أي اختراق العلبة السوداء « (20)

بناءا على ما سبق ذكره ، جزأنا النص الى ثلاث حلقات سردية :

1- الحلقة الأولى : تبتدئ من : كنت في أول أمري ....

وتنتهي عند: فيدورون حولي و يبصبصون لي .»

2- الحلقة الثانية : تبتدئ من : فبينما أنا ذات يـوم بفـاس ...

وتنتهي عند: وعادت لحالها معي

- الحلقة الثالثة: تبتدئ من : و لما رجعت لفاس

و تنتهي عند : و آنست بي

و قبل أن نبدأ في التحليل, أشير إلى أننا اعتمدنا مفهوم الحلقة كوحدة نصية صغيرة و قائمة بـذاتها مـن حيـث الطـرح الدلالي و من حيث الوظيفة النصية .

1- الحلقة الأولى:

و قد اصطلح على تسميتها بالحلقة الابتدائية .

تشكل هده الحلقة المحطة الافتتاحيـة أو إعـلان عـن بدايـة تجربة عاش أحداثها و وقائعها الولي الصالح أبو مدين شـعيب ، يرويها هو نفسه وبلسانه لإخوانه و لأصحابه .

لقد تأسس البناء السردي لهده الحلقة وفق النظـام الـراوي –الشخصية أي أن راوي الأحداث هو نفسه الشخصية المحورية

و التي تبنت سرد أحداثها بنفسها مستعملة ضمير المتكلم ، الأمر الذي يؤهلها لسرد تجربتها بسلطة مطلقة و بمعرفة كاملة . هدا من جهة , و من جهة أخرى , تنتقل هده الشخصية – الراوي بين الأزمنة بدون حدود .تحكي عن الزمن الحاضر وعن الزمن الماضي دفعة واحدة ، لأن تجاربها الحاضرة و الماضية مرتبطة يبعضها البعض

ارتباطا عضويا، فهي تكمل بعضها البعض.

تأسس الملفوظ السردي لهده الحلقة مند البداية وفق قفزة زمنية استرجاعية .سافر النص بالملتقى مند أول كلمة إلى الزمن الماضي : « كنت في أول أمري و قراءتي على الشيوخ...» يعود الراوي –الشخصية الى الزمن الماضي ، الزمن الذي اعتاد فيه السفر إلى مدينة فاس للقاء الشيوخ و القراءة عليهم و استفساره لهم حول معنى آية قرآنية أو حديث .

ارتبطت القفزة الزمنية الماضية و تكرارها ثم استمرار حضورها وحدوثها في الزمن الحاضر بالبحث عن العقيدة الدينية الصحيحة والسليمة (التي شكل الشيوخ مصدرها

الديني و العلمي و دلك لما يتمتعون به و لما يملكـون مـن قـدرة علمية على تفسير آيات القرآن و الأحاديث النبوية .

يتشكل النص من التفاعل الديناميكي العضوي للعناصـر التالية: الحدث، الفواعل، الزمن ، الفضاء .

-الراوي يسافر الى فاس

الانتقال من فضاء الى فضاء آخر.

-الراوي –الشخصية يلتقي بالشيوخ

الاتصال بين الفواعل

الراوي ∩ الشيوخ

تشكل العلاقة الاتصالية الراوي –الشيوخ القوة الفاعلة و الموجهة لمحور الرغبة

الراوي –الشخصية ⟵ الشيوخ

محور الرغبة : البحث عـن امـتلاك العقيـدة الصـحيحة ، حيث التفاعل الاتصالي

التواصلي وفق نظام ثنائي متكامل :

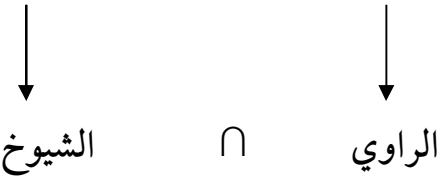

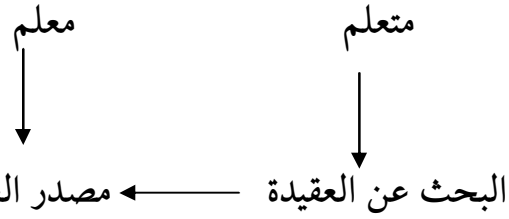

« كنت في أول أمري و قراءاتي على الشيوخ اذا سمعـت تفسير آية أو معنى حد يث قنعت به و انصرفت لموضع خـال خارج فاس « .

يتواصل التفعيل الديناميكي الحدثي مـن خـلال الانتقـال التكراري للراوي بين الفضائيين : الخلوة –فاس:

الانتقال الأول : الذهاب

الراوي ←——— الخلوة ←——— فاس

اقترن الفعل الانتقالي الإياب بالبحث عن التأمل في المعرفة المكتسبة .

يعيش الراوي بعض من حياته الروحية بين محور الذهاب و الإياب من الخلوة الى فاس ومن فاس الى الخلوة ، من التمعن الى التعلم ومن التعلم الى التمعن .

لقد خضعت المنظومة الحياتية الروحية للراوي لمجموعة من الثنائيات البشرية و الفضائية :

الراوي	≠	الشيوخ
متعلم	≠	معلم
الخلوة	≠	المدينة

غير أن هده الثنائيات ليست متناقضة ، بل متكاملة تكاملا عضويا وأساسيا و ضروريا و لا بد و أن تكون كذلك .فهي تكمل بعضها البعض الى درجة أنها تشكل وجهين لسلوك و موقف و ذات واحدة موحدة :

- الراوي يرغب في امتلاك المعرفة الدينية الصحيحة لابد و أن يسافر يبحث عنها عند الشيوخ العلماء فهو المتعلم و هم المعلمون العالمون .

الراوي الذي هو أصلا الولي الصالح أبو مدين شعيب ، الرجل الصوفي بامتياز ، لا يرغب في البقاء بالمدينة فهو يبحث عن مكان هادئ و بعيد عن ضجيج المدينة و الناس .

- يهرب الى الخلوة ليتمعن و يتأمل في المعرفة الدينية .

- تكشف هده الثنائيات المتكاملة عن ثنائيات أخرى ضمنية لم يفصح النص عنها و لكنها تفهم من السياق:

- المؤمن الحقيقي يبحث عن المعرفة عند الشيوخ عكس الذي لا يبحث عن المعرفة الدينية الصحيحة .

- المؤمن الحقيقي ينتقل و يسافر و يجتهد من أجل التعلم عكس الذي لا ينتقل ولا يسافر و لا يجتهد من أجل التعلم .

- المؤمن الحقيقي يبتعد عن هول و ضجيج الناس حتى يتمعن و يتأمل في المعرفة الدينية و يحافظ على نقاوة و طهارة تدينه عكس الذي يعيش في ضجيج المدينة و متاهات الناس التي قد تدنس عقيدته ...

-فبين الكائن و ما يجب أن يكون يعلن الراوي الرجل الصوفي بامتياز عن هويته ، فهو يسافر ، ينتقل ، يجتهد ، يبحث عن المعرفة ، يبحث عن العزلة ، يبتعد عن أهوال الدنيا و المدينة، يتمعن و يتأمل في خلق الله ...

تتقاطع هده الهوية المعلن عنها عبر هده المحطات سواء في تجلياتها أو في خفائها في النص مع بعض من سلوك و سيرة الصوفية و الدين بدورهم يسعون من أجل أن تتقاطع حياتهم و سلوكهم و تجاربهم مع بعض من سلوك و حياة و تجارب الرسول (ص) :

-الرسول(ص) ← غار حراء ← التمعن في الوحي جبريل ← -الولي الصالح ← الخلوة التمعن في المعنى ← الشيوخ

تسعى المنظومة الأوليائية الى تفعيل تقاطع تجارب الأولياء و تجارب الأنبياء و الرسل لأن الولي بصورة عامة « ملزم ضمنيا بالانخراط في صف من سبقوه ، ملزم بالاندماج في أسرة الأنبياء و الأولياء ، لأن هدا الاندماج هو الذي يؤكد

جدارته و استحقاقه و يمنحه بعدا دينيا لا يتحقق بصفة تامة في حالة انفراد الولي بكرامة لا مثيل لها في الماضي . « (21) :

و يمكننا تمثيل بعض من هدا التقاطع في الشكل التالي :

فاعل الموضوع	فاعل الرغبة	زمن الرغبة	فضاء الرغبة	مصدر الرغبة
الرسول (ص)	العقيدة	زمن الوحي	غار حراء	الوحي و جبريل
الولي الصالح	العقيدة	زمن التمعن	الخلوة	العلم و الشيوخ

يذهب الولي الصالح الى مدينة فاس ثم يعود الى خلوته .

يتعدى برنامج التنقل من فضاء الى فضاء آخر الحدود الجغرافية المادية ، فهو تنقل أيضا من فضاء الطبيعة الى فضاء الثقافة ثم العودة الى فضاء الطبيعة .

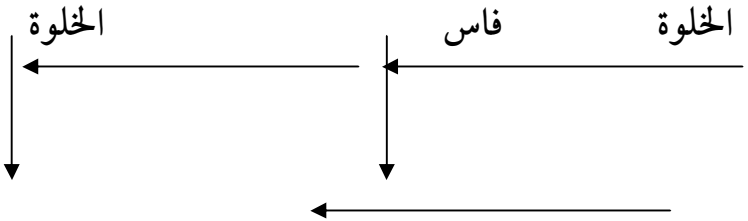

الطبيعة ←——————— الثقافة

يتشكل كل فضاء من عدد من العناصر مرتبطة به ارتباطا عضويا سواء من حيث الماهية أو من حيث الوظيفة :

فضاء المدينة ←——— فاس الشيوخ –المساجد- السوق.

فضاء القرية ←——— الخلوة ←——— الحيوانات: الكلاب والغزالة.

فالشيوخ يشكلون العنوان البارز الذي يقصده الولي الصالح قصد تحقيق الرغبة .

الحيوانات تشكل العنوان البارز الذي يستأنس به الولي الصالح قصد تغذية و صيانة رغبته .

« فادا خلوت به (الموضع خارج مدينة فاس) تأتيني غزالة تأوي إلي و تؤنسني ، و كنت أمر في طريقي بكلاب القرى المتصلة بفاس ، فيدورون حولي و يبصبصون لي .»

تشكل هده المحطة بعض من لمحات الصوفية التي تصنع لغتها الرمزية و أفكارها الروحية من عوالم تبدو غير منطقية وغير عادية للإنسان العادي ، فالرجل الصوفي يخضع سلوكه

وخطابه للغة و المعاني قد لا يـدرك أسـرارها إلا رجـل صـوفي مثله يمتاز بنفس السفريات مع اللغة و الأشياء :

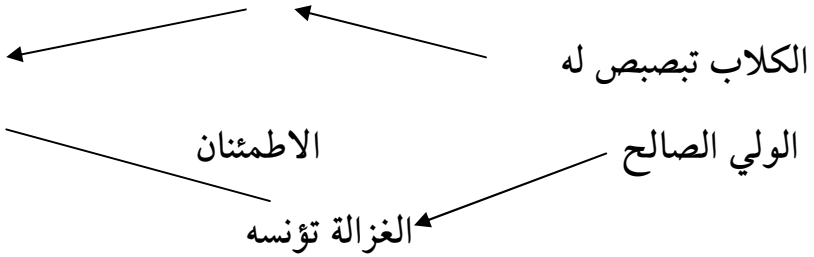

قد نقول أن الولي الصالح وجد في عالم الطبيعة و الحيوانات ما فقده من عالم الثقافة و الإنسان و دلك لا لشيء إلا من أجل الحفاظ على نقاوة عقيدته :

المدينة ← الناس ← الثقافة ← قد تسيء الى العقيدة

الخلوة ← الحيوانات ← الطبيعة قد تصون العقيدة

يذكرنا برنامج الولي الصالح –الحيوانات بمبدأ التكرار و التقاطع سلوك الأوليائية مع بعض المواقف لأولياء سابقين أو للأنبياء و الرسل (ص) :

- النبي سليمان ← يخاطب الهدهد و يتحدث مع النمل

- الولي الصالح ← تبصبص لـه الكـلاب و تستأنس به الغزالة .

الحلقة الثانية :

و قد اصطلح على تسميتها بحلقـة التحـولات السـردية و الدلالية حيث تتم فيها و عبرهـا كـل التحـولات الـتي يعرفهـا النص و الـتي تسـافر بفضـائه مـن الحلقـة الأولى الابتدائيـة الى الحلقة الثالثة النهائية .

و قد تترجم هده السفارية انتقال النص من حالة الى حالـة أخرى .

تفتتح هده الحلقة فضائها بحضـور الـراوي –الشخصـية- الولي الصالح أبي مدين شعيب- في مدينة فاس كعادته .

و قد أشارتا سابقا أن فعـل الانتقـال الـولي الصـالح الى مدينة فاس هو فعل تكراري فهو يتنقل الى مدينة فـاس و يعـود الى خلوته . يتنقـل بهـاجس رغبـة امـتلاك العقيـدة الصـحيحة بفضل ما شرحه له شيوخ فـاس مـن آيـات قرآنيـة و أحاديـث نبوية .

لعل ما يميز في هده المرة الانتقال الى مدينة فاس هو لقائه بأحد معارفه من الأندلس .

لقد كان لهدا اللقاء أثار كبيرة على البرنامج العادي و الاعتيادي للولي الصالح أبي مدين حيث يكسبه وظائف حتمية أخرى : وظيفة ضيافة القريب الأندلس.

لقد كشفت هده الوظيفة الوجه الآخر لأبي مدين الشعيب الرجل الصوفي بامتياز . فهو بفكر في الضيافة لابد من إطعام ابن السبيل و ذوي القربى ، غير أنه لا يملك الدراهم حتى يستطيع أن يشتري له ما يمكن أكله ... وأمام حتمية و واجب الضيافة فلم يجد إلا ببيع ثوبه و إعطاء ما يتحصل عليه من الدراهم لهدا الضيف.

تؤهل هده المحطة الولي الصالح الى قيادة برنامج سردي جديد مواز للبرنامج الأساسي و مكمل له من حيث الوظيفة العقائدية الشاملة .

البرنامج الأولي و الأساسي: امتلاك العقيدة الصحيحة.

البرنامج الثاني و الثانوي: إطعام الضيف .

يشكل البرنامج الثاني جزءا من البرنامج الأول و الأساسي الذي يسعى الولي الصالح أبو مدين

الى تحقيقه و امتلاكه و العمل به كما نص على دلك القرآن الكريم في قوله عز و جل « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق و المغرب و لكن البر من آمن بالله و اليوم الآخر و الملائكة و الكتاب و النبيين و أتى المال على حبه دوي القربى و اليتامى و المساكين و ابن السبيل و السائلين و في الرقاب و أقام الصلاة و أتى الزكاة و الموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، و الصابرين في البأساء و الضراء ، و حين البأس أولئك الدين صدقوا و أولئك هم المتقون»(22) .

يوصل هدا اللقاء الولي الصالح أبي مدين الى تبني برنامجين متكاملين حيث الطرح الوظائفي .

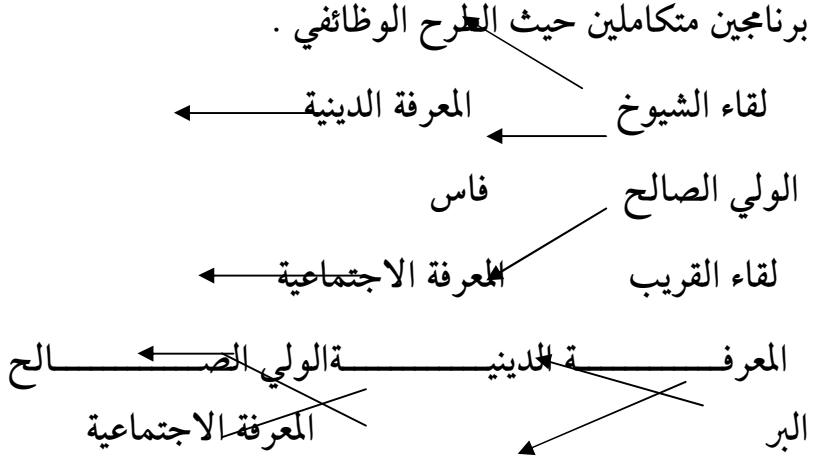

يباشر الولي الصالح تنفيذ البرنامج الثاني حيث يبيع ثوبه في السوق ليعطي الدراهم للقريب الأندلسي . غير أن هدا البرنامج لم يتحقق و لم يصل الى نهايته حيث يختفي القريب الأندلسي في زخم السوق و بالتالي لم يستطع أبو مدين الولي الصالح إعطاءه الدراهم . فالرغبة الافتراضية ظلت معلقة و لم تتحقق . لقد شكل عنصر اختفاء القريب الأندلسي عنصرا مخلا لنظام البرنامج الثاني الذي سعى الولي الصالح الى تحقيقه .

استسلم الولي الصالح لهدا الواقع و اعتبر عملية اختفاء القريب الأندلسي أمرا طبيعيا و أن المرء حسب نيته ، و أن الأعمال بالنيات ، فهو قد نوى ضيافة قريبه و باع من أجل دلك ثوبه و لكن النية لم تتحقق ، الأمر الذي أخضع هدا البرنامج السردي الى الوضعيات التالية :

وضعية افتراضية	وضعية حالة	وضعية حقيقية
لقاء أبي مدين القريب الأندلسي و نية الضيافة	- قرار الضيافة - بيع الثوب و الحصول على الدراهم	اختفاء الضيف الضيافة لم تتحقق.

يتخلى الولي الصالح أبو مدين عن البرنامج الثاني الـذي لم يتحقق ليعـود مـن أجـل التكفـل و مواصـلة تحقيـق برنـامج الأساسـي و الثابـت ، ليعـود الى الخلـوة للـتمعن في الآيـات و الأحاديث التي قرأها عن الشيوخ, غير أن ما يميز هده العودة ، أن الولي الصالح أبا مدين عاد الى خلوتـه محمـلا بمـادة روحيـة كعادته مضاف اليها حمولة مادية و المتمثلة في تلك الدراهم الـتي تحصل عليها مقابل بيع ثوبه .

يعود الى خلوته سالكا نفس الطريق و عبر نفس المعالم :

الولي الصالح ← فاس القرية بكلابها الخلوة و الغزالة

غير أن محور العـودة هـده المـرة عـرف تحـولات عنيفـة و صاخبة أصابت النظام العلاقاتي :

الولي الحيوانات

حيث أن كلاب القرية منعته هـده المـرة مـن المـرور حتـى تدخل أهل القرية و أحالوا بينها و بينه .

كلاب القرية تعرف الولي الصالح و تربطها بـه علاقـات معرفة و مودة ، اعتادت رؤيته ، تسـرع إليـه ، تـدور حولـه و تبصبص له و تصطحبه الى أن يبتعد عـن القريـة .أمـا اليـوم ،

فإنها تهاجمه و تمنعه من المرور ، تنكرت له ، لم تعرفه أو لم يبقى دلك الولي الصالح الذي اعتادت عليه و التي تعلقت به :

حيث المعادلة العلاقاتية التالية:

الولي الصالح U الكلاب

بعدما كانت:

الولي الصالح ∩ الكلاب

يصل الى خلوته كعادته ليواجه نفس المصير مع الغزالة التي تنكرت له و انصرفت عنه .

« و لما وصلت لخلوتي ، جاءتني الغزالة على عادتها فلما شمتني نفرت عني و أنكرت علي «

و كأن الغزالة أحست و شمت أن الولي الصالح أبا مدين يحمل معه أشياء تشيع منها رائحة سيئة... فابتعدت عنه لأنها اكتشفت فيه غير الولي الصالح الذي اعتادت الاستئناس به و بما تشيع منه من عطور خاصة...

لقد عرف محور علاقة الولي بالغزالة تحولات جذرية حيث تحولت من:

الولي ∩ الغزالة.

الى :الولي U الغزالة.

يتحول المسار العلاقاتي الشامل للولي بالحيوانات من الحالة الأولى :

الولي الحيوانات القرية – الخلوة: مسار إيجابي

الى الحالة الثانية :

الولي الحيوانات القرية - الخلوة: مسار سلبي

لعل العنصر الذي أحدث خللا في نظام العلاقات يبقى بدون أدنى شك تلك الدراهم التي عاد بها الولي الصالح الى خلوته.

تحلق هده المحطة بنص عبر عدد من العوالم والفضاءات الصوفية التي تسعى الى الطهارة المطلقة من دنس الحياة الاجتماعية .

فالولي الصالح يظهر في هده المحطة محملا بخطيئتين :

1-*الخطيئة الأولى*: أنه نوى إكرام و إطعام ضيفه و لم يفعل دلك ، و لم يجتهد في البحث عنه في السوق ... و بالتالي كان عليه أن يبقى في المدينة حتى يتم اللقاء و تتم الضيافة.

2-*الخطيئة الثانية* : تعتبر الدراهم رجسا من الحياة الاجتماعية المتناقضة ، و قد تحمل شيئا من الدنس الذي قد يسيء الى شخصية الرجل الصوفي الطاهر بامتياز ، فهده الدراهم ليست من نصيب الولي الصالح فلقد نوى تصديقها و إعطاءها للقريب الأندلسي ... فهي مند أن نوى ، لم تعد ملكا له ، فهي لغيره .

تحكمت في محور علاقة الولي الصالح بالحيوانات بعض العناصر المعنوية و الرمزية و التي لا يمكن استجلاء دلالاتها و وظيفتها إلا اذا استطعنا السمو بقراءة النص وفق إجراءات معرفية و دينية مستمدة أصلا من ثقافة التصوف و شطحات الصوفية و تقاطعها من حيث البعد الرمزي مع بعض مقاصد قصص الأنبياء و الرسل و هدا يعود بدون شك الى دلك «الارتباط الوثيق للكرامة بالدين و طبيعتها المستمدة منه ، و المشابهة للنظرة الدينية ،و لا يصدق منتجها إلا لارتكازه على سلطة نصوص مقدسة» (23) .

فمهما تكن طبيعة هده العلاقة الولي – الحيوانات ، سواء أكانت اتصالية أو انفصالية من حيث الطرح الشكلي و ما استطعنا استنتاجه من دلالات ، إلا أن المعنى السري الخفي فقد « يستعصى على الوصف و يعلو على التعبير ،... فالمتصوفة لم يحاولوا أن يضعوا له تفسيرا

أو تعليلا ، و إنما وصفوا ما أدركوه أو شاهدوه ، بأنها أمور وجدانية دوقية لا تفي اللغة بالتعبير عنها أو ترجمتها بالألفاظ.

الحلقة الثالثة:

و قد اصطلح على تسميتها بالحلقة النهائية – الخاتمة – و نعتبر هده الحلقة محطة أساسية لبداية إصلاح الوضعية المتدهورة التي تركنا فيها الولي الصالح – الراوي الشخصية في الحلقة الثانية.فيسافر الى مدينة فاس محملا بمشروع جديد يختلف فيه و به عن السفريات المعتادة و السابقة من حيث أسبقية الرغبات :

- السفريات المعتادة الرغبة الأساسية : البحث عن العقيدة الصحيحة - سفرية هده الحلقة الرغبة الأساسية : البحث عن المعرفة الاجتماعية

يسافر الراوي بطل القصة الى مدينة فاس ليبحث عن قريبه . فيلتقي به و يعطيه الدراهم ، ثم يعود الى خلوته سالكا نفس الدرب .

و قد تم اللقاء و تحققت رغبة البرنامج السردي الثاني . لقد كان لهدا اللقاء أثر كبير في إعادة إصلاح الوضعية المتدهورة و خاصة في مجالها العلاقاتي :

الولي الصالح ←——— الحيوانات.

يعود الى خلوته ، يصل الى القرية ، فتخرج كلابها ، ترحب به ، تدور حوله ، و تبصبص له و ترافقه حتى يغادر و يبتعد عن القرية ، فتعود الى مكانها في القرية هادئة مطمئنة .

ارتبط هدا المشهد السردي بعدد من المعادلات الزمنية و العلاقاتية :

ما قبل الأمس: الولي ⟲ الحيوانات علاقة منسجمة

الأمس: الولي U الحيوانات علاقة مضطربة

اليوم: الولي ⟲ الحيوانات علاقة منسجمة

ما قبل الأمس:الولي الصالح U الدراهم

الأمــس: الولي الصالح∩ الدراهم

اليــوم: الولي الصالح U الدراهم

لقد تزامن انسجام علاقـة الـولي الصـالح بالحيوانـات في الحالة الـتي لم يكـن يملـك فيهـا الـدراهم ، حيـث أن :-الـولي الصالح∩ الدراهم = الولي الصالحU الحيوانات = انسجام

- الـولي الصـالح U– الـدراهم = الـولي الصـالح ∩ الحيوانات = اضطراب

- الـولي الصـالح ∩الـدراهم = الـولي الصـالح U الحيوانات = انسجام

يعود سبب زعزعة نظام العلاقات الى عنصر امتلاك الدراهم .

تعود العلاقات الى حالتها العادية و الطبيعية ، تعود لتطمـئن و تطمئن الولي الصالح على أن ذا ته الصـوفية أصـبحت طـاهرة نقية و قد تحررت من دنس الدراهم . و هنا تبـدأ لحظـة الـوعي بهوية الانتماء الروحي وفق أطروحانية خاصـة و مميـزة تكسـى فيها الأشياء و الحيوانات و العناصر الطبيعية دلالات مخالفـة و أحيانا مناقضة لدلالاتها الأساسية ...

دلالات لا يمكـن اكتسـاب أسـرارها و أبعادهـا إلا إذا وضعناها في إطارها الصوفي الفاعل و المتفاعل مع عالمه الخاص ، حيث يسافر بذاته و بما تملك و بما يحيط بها من العالم الـواقعي المرئي الى عالم خاص من صنعه الخـاص وفـق منطـق خـاص و مميز لا يخضع لقوانين الحياة العادية البسيطة .

و تتجلى هده السـفرية الدلاليـة في دلـك الاعتقـاد الـذي استنتجه الولي الصالح من تلك التحولات في طبيعة علاقته مع الغزالة و كأنها أبرمت عقدا و اتفاقـا و اتحـادا مـع الكـلاب في علاقتها و في موقفها من الولي الصالح . لقد خضعت علاقتهـا معه لنفس المنطق الذي خضعت له علاقة الكلاب مع الـولي و في نفس المرحلة الزمنية و وفق نفس السببية الحدثية :

- مـا قبـل الأمـس ∩ الـدراهم = الـولي ∩ الغزالة = استئناس

- الأمـس U الدراهم = الـولي U الغزالـة = استنفار

- اليـوم ∩ الـدراهم = ا لـولي ∩ الغزالـة = استئناس

لقد أدرك الولي الصالح سبب هده التقلبات هو بنفسه : « فقلت ما اتى علي الا من أجل هده الدراهم التي معي ، فرميتها عني ، فسكنت الغزالة و عادت لحالها معي . «

يعترف الولي الصالح بأن ما يحمله معه من دراهم كان سببا في تدهور علاقته مع الحيوانات ، غير أننا لا يجب أن نقف في تأويلاتنا عند حدود المشهد السطحي :»الولي الصالح أو الحيوانات «

يؤهل هده العلاقة القارئ إلى تأويلات أعمق و إلى استنتاجات أوسع في علاقته بالبعد الدنيوي أو البعد المقدسي:

فالنص في محطته هده يتحرك ضمن قطبين اثنين:

الدنيوي		المقدس
الغنى المادي	≠	الفقر المادي
الفقر الروحي	≠	الغنى الروحي
الخطيئة	≠	التواب
عالم الدنيا	≠	عالم الآخرة
التقرب الى الإنسان	≠	التقرب الى الله

الدنـــــس ≠ الطهـــارة

لقد استثمر النص من حيث دلائليته التي قد تكشف عنها بنيته العميقة الوجه الآخر للحيوانات و للدراهم و قد تشيعه من دلالات على المستوى الرمزي .

فان عنصر الدراهم رمز الحياة المادية و رمز المعاملات التجارية بين البشر، قد تكون في كثير من الأحيان مرهونة منطق غير صاف، يشوبه الغش و السرقة و عدم الصفاء و الأمانة... و قد تحمل دراهم التي تحصل عليها الولي الصالح مقابل بيع ثوبه شيئا من هدا المرفوض و الممنوع و الحرام.

حتى و ان كانت هده الدراهم تحمل شيئا من الصفاء فهي ليست له ، فهي للقريب الأندلسي

فبالنسبة للرجل الصوفي الذي يسعى دوما و أبدا للصفاء ، فان الدراهم التي عاد بها خلوته محملة بخطيئتين :

1-خطيئة محتملة: كيفية الحصول عليها، هل فعلا تعادل و تناسب ثمن الثوب ... ! هل خضع تجارته و بيعه لثوبه لمقياس البيع و الشراء المحدد شرعا! أسئلة قد تجرح الذات الصوفية التي لم تعتاد على مثل هده الممارسات ...

2-خطيئة حقيقية : تحصل الولي الصالح على دراهم و هو ليس في حاجة إليها – باع ثوبه ليكرم ضيفه . الضيف اختفى – و لم يجتهد في البحث عنه ، عاد الى خلوته بشيء ليس له .

و بإمكاننا مواصلة محاورة الدلالات الرمزية لهده الأشياء و لهده الحيوانات في علاقتها مع الآشياء سواء في الحياة الاجتماعية و المادية أو في بعدها الرمزي و الطقوسي .

لقد سخر النص هده العناصر تسخيرا شكليا و دلاليا و رمزيا و طقوسيا لقول أشياء لم يفصح عنها مباشرة ، فالعناصر المسخرة في النص غير مقصودة لذاتها ، و إنما لما قد تبوح به من دلالات سرية قد تكون من وحي الفضاء الصوفي الذي يسعى دوما و أبدا الى التعامل مع العالم و الاشياء المادية تعاملا روحيا قصد التقرب الى مبتغاه العقائدي الخاص .

أما من حيث الطرح السردي الدلالي و الوظائفي لقد خضع النص الى نظام تفاعلي مستمر حيث لا يهدأ على حال منذ البداية حتى النهاية ، فهو نص التفاعلات .

ان الراوي – الشخصية الذي قلنا عنه سابقا هو الولي الصالح أبو مدين شعيب الرجل الصوفي ، بل الرمز البارز من رموز صوفية المغرب الإسلامي ، و بطل هده الحادثة – التجربة ، يروي هده الحكاية و هو بدون أدنى شك على علم و دراية بأبعادها التأويلية و بالتالي ، فان القاريء مطالب بأن يتعدى المستوى السطحي و البائن للأشياء و للأفعال ، فالنص ، يدفع بالقاريء الى المعاكسة و المشاكسة ، و من ثم ، فان قراءة هدا النص ، لا بد أن تكون ثورية معاكسة و مشاكسة و أن تصنع عالمها الخاص من هده العناصر المتناقضة و المتفاعلة فيما بينها و تؤدي الى بعضها البعض و دلك وفق عدد من الثنائيات التي قد تضمن للنص سلامة المسعى العقائدي و الذي يسعى الولي الصالح أبو مدين الى تحقيقه و تفعيله في ذات الملتقى عبر هده الثنائيات المتتالية:

النظام – الفوضى – النظام

الباطن – الظاهر – الباطن

الهادئ – الصاخب – الهادئ

الطبيعة – الثقافة – الطبيعة

البر - الإثم - البر

المقدس - الدنيوي - المقدس

« و عليه فانه يتعين استعمال الوقائع الحرفية الواردة في الترجمة المنقبية لابراز موازياتها المضمرة ، و تأسيسا على هدا ، فان الترجمة المنقبية تصير مشبها أو موضوعا أولي يحتاج الى مشبه به ، أو موضوع ثان ، هدا الموضوع الثاني هو المقصود ، و الأمثل ، أي استعمال معطيات الواقع لبناء الممكن و المراد و المبتغى « (25) .

النظام الفاعلي

يساهم في تفعيل الحدث في النص عدد من الفواعل حيث يتحركون وفق منطق سردي في اتجاهات مختلفة باختلاف علاقتهم مع محور رغبة فاعل الذات الذي هو كما أشرنا سابقا الولي الصالح أبو مدين شعيب الراوي – الشخصية في نفس الوقت و الذي تبنى رواية قصته و تجربته هو نفسه « أنا الراوي – الشخصية « .

لقد اتحدت في النص الهوية الوظيفية لكل فاعل من خلال علاقته الاتصالية أو الانفصالية مع محور الرغبة الأساسي و المحوري .

و تفاعلت كل الشخصيات في النص تفاعلا عضويا مستمرا كما نبينه في هدا الرسم الهيكلي العام للنظام الفاعلي :

الفاعل المرسل فاعل الموضوع الفاعل المرسل اليه

امتلاك العقيدة المعرفة الدينية أبو مدين شعيب الصحيحة الولي الصالح الصوفي

الفاعل المساعد فاعل الذات الفاعل المعاكس

الخلوة – فاس أبو مدين شعيب - فاس – القريب

الشيوخ – الكلاب الولي الصالح الأندلسي- الدراهم .

الغزالة – القريب الثوب

محور الرغبة: فاعل الذات – فاعل الموضوع

يمثل الولي الصالح أبو مدين القطب الأساسي لهدا المحور فهو يشكل القوة الفاعلة و المحركة و الموجهة له:

أبو مدين الولي الصالح – البطل – فاعل الذات ، يمتلك برنامجا و يعمل جاهدا من أجل إنجازه و تحقيقه و الوصول به الى النهاية : امتلاك المعرفة الدينية الصحيحة من عند شيوخ فاس . فهو يسافر من أجل دلك الى مدينة فاس ، الفضاء الذي يحتوي عناصر أساسية تساهم في تحقيق الرغبة .

يترجم فعل الانتقال التكراري من الخلوة الى فاس رغبة ملحة و أكيدة على امتلاك المعرفة الدينية و الحصول عليها صحيحة من مصادرها بامتياز : الشيوخ.

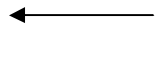

محور الرغبة

أبو مدين شعيب المعرفة الدينية

و لقد تفاعل مع محور رغبة البطل عدد من الفواعل سواء من أجل المساعدة و التدعيم أو من أجل المعاكسة و المنع ، الأمر الذي أهل هدا البطل الى تسيير شؤون برنامجه بمفرده ، لأن الرغبة هي رغبة شخصية أصلا و الفوز بها لا يتنعم بنعمتها إلا شخص واحد في علاقته المقدسة مع ربه .

لا يمكن اعتبار محور الرغبة كحدث سطحي و بسيط ،قد يكون كذلك بالنسبة للإنسان العادي الذي يريد أن يتعلم أو أن يمتثل لقول الرسول الأعظم (ص) – « طلب العلم واجب على كل مسلم و مسلمة .»

قد يكون عند الولي الصالح أبي مدين الرجل الصوفي شيء من هدا ، غير أن طلب العلم و الذي أردنا له مرادفا دلاليا و وظيفيا أعمق و أوسع و أسميناه الرغبة في امتلاك المعرفة و هي عند الرجل الصوفي أولا و قبل كل شيء أساس العقيدة و طريق الأزلي للوصول الى معرفة الذات الإلهية ، فامتلاك المعرفة هي أصلا مرادف لامتلاك العقيدة عند الصوفي الذي هو مطالب دوما و أبدا بقراءة الكتاب و السنة و الغوص في المعاني الباطنية .

هكذا كان هاجس الولي الصالح أبي مدين شعيب يسافر عند الشيوخ و العلماء ، يجالسهم

و يستفسرهم في معني الآيات و الأحاديث فانه « كان اذا استكمل ... الأركان التي يقوم عليها العلم. مضى في إقامة

جدرانه بتحصيل المعارف الدينية و الجد في طلبها، فيأخذها من علماء الشرع و الفقهاء و أهل الحديث و التفسير. « (26)

ان هاجس امتلاك المعرفة و مسائلة العلماء و الشيوخ ناتج عن رغبة قوية في امتلاك عقيدة دينية سليمة و صحيحة كما يقول الحكم الترميدي : « انك اذا علمت عرفت و اذا عرفت عبدت « (27) .

محور فاعل الذات – الفاعل المساعد

فاعل الموضوع

المعرفة الدينية

الفاعل المساعد	فاعل الذات
الخلوة - فاس	الولي الصالح
الشيوخ – الكلاب	أبو مدين
الغزالة – القريب	

لقد تعددت العناصر الفاعلية المتفاعلة و المساعدة لفاعل الذات في تحقيق رغبته .

1 – مدينة فاس : يعتبر فضاء مدينة فاس عنصرا مهما و أساسيا في تفعيل رغبة - البطل – الشخصية الأساسية و تحقيقها حيث يتفاعل مع هده المدينة تفاعلا معرفيا قويا ، يسافر إليها باستمرار ، يلتقي فيها بالشيوخ ، يقرأ عليهم ، يجالسهم و يستفسرهم في مسائل دينية من آيات قرآنية و أحاديث نبوية .

ليس السفر الى مدينة فاس سفرا اعتباطيا ، فهو سفر محمل بأكثر من دلالة و دلك لما يشيعه اسم هده المدينة في المخيال المعرفي العربي الإسلامي المغاربي ، فهي عاصمة حضارية و قلعة العلماء و مهد الثقافة الإسلامية ... كما تشكل هده المدينة مع مدينتين أخرتين و هما بجاية و تلمسان عناصر أساسية في تشكيل جغرافية الذات المعرفية الصوفية و المنقابية لشخصية أبي مدين شعيب .

2 – الخلوة : يشكل فضاء الخلوة مكان العبادة و التأمل بامتياز للمتصوفة . لقد اقترن فضاء الخلوة و رمزيته و وظيفته بحياة عدد من الأولياء و المتصوفة حيث شكل امتدادا عضويا لحياتهم كما شاعت أخبار بعض الخلوات بإشاعة أخبار أصحابها المتصوفة و العكس صحيح حيث شاعت أخبار بعض المتصوفة بإشاعة أخبار و اكتشاف بعض الخلوات .

فالخلوة هي نص جغرافي و أثري غني بالدلالات و التي لا يمكن اكتساب أبعادها من حيث الطرح الرمزي و الوظائفي إلا بالسمو بقراءة جمالية المكان من الطرح المادي الدنيوي الى مستوى الروحي العقائدي . فالخلوة فضاء تعلن حدوده منذ البداية الأزلية عن القطيعة الاجتماعية و الثقافية و البشرية المادية التي يسعى الرجل الصوفي الى إحداثها و تفعيلها مع العالم الخارجي المادي و مع الناس .

تشكل الخلوة الفضاء المغلق و الخفي و الصامت و الهادئ و البسيط و الآمن الذي يحمي و يحتمي به و فيه الرجل الصوفي ليصون ذاته الروحية طاهرة صافية من براثين العالم الاجتماعي و مدنساته ، فالخلوة هي امتداد رمزي و وظيفي لغار حراء ... فهي مكان التأمل و التمعن في آيات الله ، فالخلوة فضاء خصب يستثمره الولي الصالح لمناجاة ربه في هدوء تام.

اختار الولي الصالح أبو مدين شعيب خلوته في مكان بعيد عن مدينة فاس . و قد عرف عنه أنه كان لا يغادر خلوته إلا نادرا . فقد كان يحب بل يعشق هدا المكان الذي صنعه هو بنفسه لنفسه .وظلت تربطه به علاقة خاصة الى درجة أصبحت

الخلوة امتدادا عقائديا لشخصية أبي مدين شعيب و الذي تحول في المخيال العقائدي الصوفي خلوة يقصدها المريدون و دلك لما امتاز به من فقه و علم .

إن المتتبع لحياة أبي مدين شعيب يدرك حقيقة العلاقة التي تربطه بخلوته و التي كان لها أعمق الآثار في حياته الدينية حيث أكسبته صفة الهدوء و الصمت و الرزانة و قوة التأمل و التمعن. فأبو مدين شعيب هو خلوة داخل خلوة . و قد تذكرنا هده العلاقة بسنة الأنبياء والرسل الدين كانوا يعتزلون الناس في أماكن خالية و بعيدة و دلك بنية التعبد و التمعن في خلق الله وفي الكون.

3 – الكلاب والغزالة : شكلت الكلاب و الغزالة قوة فاعلية مساعدة للولي الصالح البطل بامتياز في تحقيق و تفعيل رغبته الشاملة : صفاء العقيدة .

لقد تجسد هدا التفاعل من خلال محوري الرضا والغضب بالنسبة للكلاب ، والاستئناس و الاستنفار بالنسبة للغزالة .

إن غضب الكلاب على الولي الصالح واستنفار الغزالة منه يترجم عدم صفاء السلوك .

في حين أن رضى الكلاب و استئناس الغزالة بالولي الصالح يترجم صفاء السلوك.

تشكل العناصر الكلاب و الغزالة المنبه الذي يحرك و ينبه الولي الصالح من أجل تفادي الأخطاء و الانحرافات التي قد تسيء الى سلوكه .

فعلاقة الولي الصالح بطل الحكاية بالحيوانات – الفاعل المساعد – سواء في حالتها الإيجابية أو في حالتها السيئة ، هي علاقة تكاملية من حيث الطرح الوظيفي ، فهو يسعى الى امتلاك عقيدة دينية سليمة و صافية و اجتناب كل ما قد يسيء الى سلامة و صفاء هدا المسعى ، و هنا تقوم هده الحيوانات بوظيفة المنبه المطهر و المطهر (بكسر الهاء ثم بفتحها) للذات المادية و المعنوية لشخصية الولي الصالح .

يذكرنا هدا المحور الخاص بعلاقة الولي الصالح أبي مدين بالحيوانات و الإحساس بها سواء أكانت غاضبة عليه أو فارحة به و كيفية تعامله معها ، يذكرنا كل هدا بما وهبه الله له من قوة و عمق الفراسة فهو الولي الصالح بامتياز و قد يصدق عليه قول الرسول (ص) « اتقوا فراسة المؤمن ،فانه يرى بنور الله

« فالرجل الصوفي كان « اذا جالس واحدا من الناس ، اطلع على سره ، و تعرف على ما يخفيه بهده الرؤية النورانية التي ينظر الولي فيها بنور الله و التي هي موهبة دائمة يحظى بها العارف في كل الأوقات لقد أثر عن أبي مدين شعيب أنه كان قوي و عميق الفراسة ، يحدث الناس عن أمور تقع في أماكن بعيدة ، يحدثهم و هو جالس معهم بعيدا عنها ... كما كان يحدث الناس الملتفين حوله عن أمور خاصة بهم لم يقدروا على البوح بها. فيكشف لهم عن أسرارهم ... غير أن فراسته هده، لم تقف عند حدود معرفة أسرار الناس و معرفة الأشياء البعيدة عن النظر ، بل تعدتها لتصل به الى مستوى معرفة إحساس الحيوانات و التحكم فيها و توجيهها كما يريد و حيثما يريد .

و من القصص التي تدل على قوة فراسته مع الحيوانات نذكر هده القصة : « مر ذات يوم الشيخ أبو مدين في بعض بلاد المغرب ، فرأى أسدا افترس حمارا و هو يأكله و صاحبه جالس بالبعد على غاية الحاجة والفاقة ، فجاء أبو مدين و أخد بناصية الأسد . فقال له الشيخ ، امسك الأسد و اذهب به و استعمله في الخدمة في موضع حمارك ، فقال له يا سيدي أخاف منه ، فقال لا تخف لا يستطيع أن يؤذيك ، فمر الرجل بالأسد

يقوده و الناس ينظرون إليه ، فلما كان أخر النهار ، جاء الرجل و معه الأسد للشيخ قال له : يا سيدي هدا الأسد يتبعني أينما ذهبت و أنا شديد الخوف منه لا طاقة لي بعشرته ، فقال الشيخ للأسد ، اذهب و لا تعد ، ومتى أديتم بني آدم سلطتهم عليكم » (29) .

3 – القريب الأندلسي : شكل القريب الأندلسي عنصرا أساسيا في تفعيل محور الرغبة و في خلخلة نظامه المنسجم و في تدهور أحواله و تغيير اتجاهاته .

لقد أحدث اضطرابا عميقا و عنيفا و صاخبا في نظام العلاقات الفاعلية كاملة و التي تربط الولي الصالح بالعناصر الأخرى المساعدة له و التي كادت أن تتحول الى عناصر معاكسة له .

شكل عنصر القريب الأندلسي مند بداية لقاءه بأبي مدين مادة خصبة لتفعيل موضوع الرغبة : امتلاك عقيدة دينية صحيحة وسليمة وصافية « ، فاغتنم أبو مدين الفرصة لتطعيم رغبته الكبرى و دلك بإضافة عنصر آخر يساهم في هده الرغبة : إطعام المسكين و ابن السبيل ودوي القربى ...

شكلت هده المحطة برنامجا سرديا جديدا للولي الصالح لا بد من إنجازه وتحقيقه. فقد عمل جاهدا من أجل دلك ، و من ثم أدرك أن الرغبة الأساسية التي يسعى من أجل تحقيقها أصبحت لا معنى لها أو ناقصة اذا لم يحقق الرغبة « إكرام الضيف »

غير أن البرنامج السردي الجديد أو الثانوي لم يكن سهلا و بسيطا في تحقيقه حيث كاد أبو مدين أن يخفق و يتحول عنصر القريب الأندلسي من فاعل مساعد على بناء العقيدة الصحيحة التي يسعى أبو مدين الى تحقيقها الى فاعل معاكس مهم يؤثر سلبا على هدا المسعى.

يعتبر عنصر اختفاء القريب الأندلسي ثم ظهوره نقطة تحول كبيرة في المنظومة السردية حيث تحول هدا العنصر من فاعل مساعد الى فاعل معاكس ثم فاعل مساعد ، و قد صاحب هده التحولات تحول في نظام علاقات أبي مدين بالحيوانات حيث تحولت هي الأخرى من فاعل مساعد الى فاعل معاكس ثم فاعل مساعد .

لقد أخضع نظام العلاقات الى التحولات التالية :

- قبل لقاء أبي مدين للقريب الأندلسي .

الولي الصالح ∩ الحيوانات علاقة منسجمة

- بعد لقاء و اختفاء القريب الأندلسي عن الولي الصالح .

الولي الصالح U الحيوانات علاقة متدهورة

- بعد اللقاء الثاني : أبي مدين بالقريب الأندلسي .

الولي الصالح ∩ الحيوانات علاقة منسجمة

4 – الثوب : شكل الثوب عنصرا مهما و أساسيا في تفعيل رغبة البرنامج السردي الخاص بالولي الصالح و القريب الأندلسي .

فالثوب يقوم في هده المحطة بوظيفة الإغاثة و الإعانة فهو يغيث أبا مدين الذي لا يملك دراهم غير هدا الثوب فيقرر بيعه حتى يطعم ضيفه وبالتالي يؤدي الواجب الديني و الاجتماعي .

فالثوب يفيد و يساعد أبا مدين و كدا القريب الأندلسي .

أبو مدين يحقق رغبة معنوية الثوب

القريب يحقق رغبة بيولوجية

و بناء على هدا، يشكل الثوب عنصرا أساسيا في مساعدة أبي مدين في تحقيق رغبته: الدينية و الاجتماعية.

5 – الدراهم : شكلت الدراهم الفاعل المعاكس بامتياز لفاعل الذات في تحقيق رغبته الروحية و المعنوية ، فامتلاك الدراهم يجر نحو عالم الماديات في حين أن الولي الصوفي يسعى دوما و أبدا الى الابتعاد عن هدا العالم قدر المستطاع ليعانق أكثر فأكثر عالم الروحانيات .

لقد كانت الدراهم التي تحصل عليها مقابل بيع ثوبه و نتيجة اختفاء القريب الأندلسي – كانت – سببا في تدهور علاقته مع الحيوانات التي أحست بأنه يحمل معه شيئا مدنسا يسيء الى صفاء سلوكه و عقيدته ودلك من ناحيتين اثنتين .

1- الدراهم: بالنسبة للرجل الصوفي رمز المدنسات المادية.

2- الدراهم : فهي ليست له ، و بالتالي فالقريب الأندلسي في حاجة ماسة إليها .

تعتبر عملية التخلص من الدراهم إعلانا كبيرا على نجاح و فوز أبي مدين في امتحاناته من أجل تحقيق الرغبة الكبيرة: امتلاك عقيدة صحيحة وصافية: ماديا و معنويا.

الخاتمة:

-يبقى في اعتقادنا هدا النص مفتوحا لقراءات أخرى و وفق أطر معرفية ومنهجية مخالفة، قد تصحح بعض ما ذهبنا إليه، أو تطور بعض ما انتهينا إليه، أو تضيف بعض ما عجزنا الوصول إليه . لقد حاولنا أن نبرز بعض الجوانب من البنية السردية و الدلالية التي تأسس هدا النص على وقعها و إيقاعها ، كما حاولنا أيضا استنطاق ما تشيعه بعض العناصر الفاعلة و المتفاعلة في النص من دلالات و التي تبقى مرشحة لاستنطاقات دلالية أخرى و دلك من أجل « إظهار بطولة الولي و انتصاره على العراقيل التي توجهه ، فهي مثال للترغيب في التصوف ، و الترهيب من إنكار بركة الأولياء و بطولتهم ... وهده الكرامات بما تتضمنه من وقائع تاريخية ومعلومات تساعدنا على تشخيص البنية الصوفية و الاجتماعية للمجتمع ... فهي لأسطورتها تكشف عن خبايا مجتمعها بقدر لا تصل إليه الوثائق التاريخية الرسمية

(30) » .

و مهما يكن من أمر، فانه من الصعب الادعاء بالقراءة النهائية و الكاملة للنص، فقراءتنا لم تنته بعد و سوف تبدأ من جديد ...

نماذج من نصوص و حكايات كراماتية للشيخ الولي الصالح ابي مدين شعيب

قال الشيخ أبو مدين :

« وكنت أيام إقامتي بفأس أزور الشيخ أبا يعزى ، و أول زيارتي له أني رأيت جماعة تحدثوا على كراماته و نووا زيارته . فذهبت معهم إليه . فلما وصلنا أقبل القوم دوني و أحضر الطعام فمنعني من الأكل معهم ، فادا حضر الطعام و قمت إليه انتهرني ، فأقول في نفسي : هؤلاء من هذه العدوة أقبل عليهم و أنا أندلسي ، فأقمت كذلك ثلاثة أيام و قد أجهدني الجوع و الذل ثم قلت في نفسي: ادا قام الشيخ من مكانه أمرغ وجهي في دلك المكان . فقام ومرغت وجهي ، فلما رفعت رأسي لم أبصر شيئا . فقلت : عميت ، فبقيت طول ليلي باكيا متضرعا ، فلما أصبح استدعاني وقال لي: أقرب يا أندلسي! فدنوت منه و قمت لا أبصر شيئا . فمسح بيديه على عيناي فعاد بصري ثم مسح بيده على صدري و قال للحاضرين : هدا يكون منه كدا و كدا ، فاستأذنته في الانصراف فأدن لي و قال لي :ترى الأسد يعترضك في الطريق فلا يروعك فان اشتد خوفك . فقل له : بحرمة أبي يعزى اذهب عني ! ثم تجد ثلاثة من اللصوص عند شجرة، فتعظهم، فيتوب اثنان و يضرب عنق الثالث و يصلب على تلك الشجرة. قال الشيخ أبو مدين رضي الله عنه فلقيني الأسد في الطريق فأقسمت عليه بأبي يعزى فتنحى عني و خرج عن

الطريق ، فلما خرجت من الشعب تعرض لي ثلاثة من الرجال ، فوعظتهم ، فأثر كلامي في قلب اثنين منهم فانصرفا و عاد الثالث الى الشجرة فسمع به بعض الولاة فأخذه و ضرب عنقه و صلبه على تلك الشجرة (31) .

بركات و كرامات الولي الصالح أبو مدين المعلم .

« انصرف مشرقا و تردد في بلاد إفريقية و استوطن في الآخر بجاية ، وكثرت تلامذته و ظهرت لكل بركاته عليهم ، يقال أنه خرج على يده ألف تلميذ و ظهرت لكل واحد منهم الكرامة و البركة ، لدلك يقال له شيخ مشايخ الإسلام و إمام العباد و الزهاد. (32)

كرامات الشيخ

غاب موسى الحلاح عن أبي مدين مدة ثم قدم عليه ، فوجده في مجلس اقرائه فجلس فلما فرغ الشيخ من إقرائه قام إليه موسى الحلاح فسلم عليه فقال له الشيخ أبو مدين :

يا أبا عمران على من وجبت الضيافة، على الزائر أم على المزور

فسكت أبو عمران ، فقال له الشيخ : علي الطعام و عليك العسل.

فقال : نعـم، فـأمر الشـيخ أبـو مـدين بصـحفة فجـاؤوا بهـا . فأخذها أبو عمران و جعلها خارج البيت ثم صلى ركعتين ثـم افتقدها فلم يجد شيئا . فقال الشيخ أبو مـدين رضـي الله عنـه، أعطني ثوبك ، فناوله إياه ، فخرج وغطـى بـه الصـحفة و هـي مملوءة عسلا أبيض، فأكل الحاضرون، قال الشيخ أبو مدين : و أكلنا من ذلك العسل خمسة وعشرين ولم ينقص ثـم خفـت أن يكون لي معلوما فتصدقت به (33).

كشف المصطلحات

Action	الفاعل
Actant sujet	فاعل الموضوع
Actant objet	فاعل المساعد
Adjuvant	الفاعل المساعد
Analepse	استرجاع
Prolesse	استباق
Conjonction ∩	∩اتصال
Disjonction U	Uانفصال
Destinateur	المرسل
Destinataire	المرسل إليه
Enoncé	ملفوظ
Enoncé narratif	ملفوظ سردي

Epistémologie	المعرفة
Narration	سرد
Niveau narratif	مستوى سردي
Narrateur	راوي – سارد
Narrateur – personnage	راوي شخصية
Opposant	الفاعل المعاكس
Structure	البنية
Structure sémantique	بنية دلالية
Structure profonde	بنية عميقة
Structure de surface	بنية سطحية
Schéma actantiel	الرسم الفاعلي
Séquence	حلقة
Séquence initiale	حلقة ابتدائية
Séquence finale	حلقة نهائية
Séquence de transformation	حلقة التحولات

الهوامش :

-هو الشيخ و الولي الصالح أبو مدين شعيب بن الحسين الأنصاري الأندلسي ، ولد عام **1**
520ه الموافق لعام **1126**م باشبيلية و توفي عام **594** ه و الموافق لعام **1197**م بمنطقة تلمسان .عاش يتيما ، و قد غادر الأندلس هروبا من ظلم اخوته له الدين أثقلوا كاهله بالأعمال الشاقة و الرعي الغنم . اتجه الى مدينة طنجة ، غير أنه لم يمكث بها طويلا ، حيث غادرها ليتجه إلى مدينة سبته التي عرف فيها بعض

الاستقرار ، و مارس بعض الأعمال عند جماعة الصيادين ... و بعد مدة من استقراره يقرر الرحيل نحو مدينة مراكش و التي عقد فيها العزم على العلم و مجالسة العلماء و الشيوخ . لقد شكلت هده المدينة نقطة تحول كبيرة في مخياله العلمي و المعرفي الديني . فاشتد حبه لعلم و متابعة العلماء أينما حلوا و أينما وجدوا ، فغادر مراكش تحت هاجس حب المعرفة و العلم متجها إلى مدينة فاس التي كانت تشكل في دلك الوقت مركز إشعاع كبير للعلم و العلماء . و قد استقر بمدينة فاس مدة طويلة جالس أثنائها العلماء و الشيوخ ، تعلم منهم الكثير إلى درجة أصبح فيها هو بدوره عالما و قطبا من أقطاب العلم و المعرفة ، و كان لاستقراره في مدينة فاس و ملازمة المستمرة لخلوته التي كانت تقع خارج المدينة ، كان لكل هدا أعمق الآثار في حياته الدينية و العلمية ...

و من هده المدينة انطلق نحو بلاد المشرق سالكا سنة العلماء و الفقهاء المغاربة حيث كانت تشكل السفرية إلى بلاد الحجاز و الشام و أداء فريضة الحج و مجالسة العلماء هناك محطة أساسية لا بد على كل عالم و عارف أن يؤديه و أن يقوم بها حيث منهم من كان يعود إلى بلدته الأصلية ، و منهم من كان يفضل البقاء هناك إلى أن يحل رحيله الأبدي ، و كم من علماء و فقهاء المغرب الإسلامي ، ذهبوا و لم و لم يعودوا حيث استقروا هناك عالمين و متعلمين .

لقد التقى أبو مدين شعيب أثناء رحلته إلى بلاد المشرق بعدد من العلماء و الفقهاء و الشيوخ المتصوفة و على رأسهم الشيخ العارف بالله عبد القادر الجيلاني و قرأ أبو مدين على يدي شيخه هدا كثيرا من أصول الفقه و الحديث ، و مما يروى عن هدا اللقاء أي لقاء الشيخين القطبين أن الشيخ عبد القادر الجيلاني أعجب إعجابا كبيرا بالشيخ أبي مدين ، أعجب بعلمه و بتقواه ، فاعترف به و أكرمه إكراما خاصا ، حيث ألبسه خرقة الصوفية و أودعه كثيرا من أسراره .

لم يستقر أبو مدين ببلاد المشرق ، حيث عاد إلى بلدته الأصلية ، و أثناء عودته مر بمدينة بجاية التي كانت في دلك الوقت امتدادا معرفيا و ثقافيا و دينيا لعدد من المدن الحضارية المغاربية كفاس و تلمسان فقر الاستقرار ببجاية عالما و معلما و مربيا ، فالتف حوله عدد كبير من طلبة العلم و تخرج على يديه ما يزيد عن ألف عالم و فقيه في أصول الفقه و الحديث ...

لقد داع صيته و انتشرت شهرته عبر البلاد المغاربية و المشرقية ، الأمر الدي أدى إلى تخوف أعدائه حيث وشوا به إلى السلطان يعقوب المنصور ...فاستدعاه هدا الأخير لمعرفة أسراره المعرفية و اختبار أفكاره و ما يعلمه للطلبة و أسباب ذيوع و انتشار شهرته فقرر مع بعض من الناس إلى مغادرة بجاية و الذهاب عند السلطان . و أثناء رحلته أصيب بتعب كبير فتوقف عند الاقتراب من مدينة تلمسان في منطقة تسمى عين تقبالت ليستريح بعض الوقت ...و هو جالس يتمعن و يتأمل كعادته وقع نظره على مكان مرتفع غير بعيد فسأل أصحابه عن

اسم دلك المكان ، فأجابوه بأن هدا المكان قريب من مدينة تلمسان و يسمى العباد ، فرد عليهم « ما أحلاه للرقاد ... « و كان تعب و قد أنهكته و لم يستطع مواصلة طريقه ...

و قد ووفته المنية بعين تقبالت و حمل أصحابه جثته إلى دلك المكان الدي وصفه « أحلى للرقاد « حيث دفن هناك بالعباد و لا يزال قبره محفوظا محترما يزورونه يوميا أهل تلمسان . كما يأتي لزيارته زوار كثيرون من مناطق مختلفة تبركا و تميما بعظمة الرجل و عظمة علمه و تقواه . وشاءت الصدف أن يكون ضريحه لصيقا بالمدرسة الخلدونية ، و هي المدرسة التي عاش فيها العلامة ابن خلدون مدة من الزمن عالما و معلما و مربيا .

ابن الزيات: التشوف إلى رجال التصوف –تحقيق أحمد التوفيق– منشورات كلية الآداب بالرباط ◄2 **1984**– ص .ص **219**–**220**.

يعد الشيخ ابو يعزى من شيوخ ابي مدين شعيب.◄**3**

مقولة شائعة كثيرا في ادب المناقب و في الحديث عن كرامات الاولياء و صوفية المغرب الاسلامي◄**4**

الجرجاني : التعريفات –مكتبة لبنان –بيروت **1985**.ص **93** ◄**5**

السراج الطوسي : اللمع –تحقيق عبد الحليم محمود . طه عبد الباقي –دار الكتب الحديثة مصر ◄**6** **1960** –ص **390** .

محمد مفتاح : الواقع و العالم الممكن في مناقب الصوفية في كتاب جماعي التأليف لمجموعة من الباحثين : ◄**7** « التاريخ و أدب المناقب « منشورات عكاظ ، للجمعية المغربية للبحث التاريخي –الرباط–**1980** –ص **33**.

8– Vladimir Propp : Morphologie du conte coll. .points – Ed . Seuil- .paris **1966**.

9– Algirdas julien grimas : Sa sémiotique du texte exercices pratiques Ed. Seuil- Paris .**1966**.

10– Roland Barthe : l'aventure sémiologique Ed Seuil – Paris . **1985**.

11– Tzvetan Todorov : Introduction à la littérature fantastique – coll. int -Ed .Seuil. Paris

12– Claude Revy Stans : Anthropologie structurale Ed . Plan. Paris.

عبد الكبير خطيبي : الاسم الغربي –ترجمة محمد بنيس◄**13**

بيروت –ط **1**–**1980** . –دار العودة –

1990 . محمد مفتاح : دينامية النص –المركز الثقافي العربي .بيروت –الدار البيضاء –ط**1**–◄**14**

1988 عبد الفتاح كليطو : الحكاية و التأويل –دار توبقال .الدار البيضاء –المغرب –ط1–15◄

.

– علي زيعور : قطاع البطولة و النرجسية في الذات العربية .دار الطليعة –بيروت–ط1◄16 1982.

يمني العيد : في معرفة النص –دار الآفاق الجديد.بيروت–.1983◄17

علي زيعور :المرجع نفسه –ص..99◄18

19-Roland Barthe le degré zéro de l'écriture coll. .point Ed –

Seuil - Paris 1953-1971.

20-Roland Barthe ibid . p .p .146 -147.

عبد الفتاح كليطو: « الولي و الجمل « في :» التاريخ و أدب المناقب». ص 42◄21

من سورة البقرة–الآية .176◄22

تاريخ وادب المناقب _جمعية عكاظ_الجمعية المغربية للبحث التاريخي _الرباط _ 1980-◄23

د.منال عبد المنعم جاد الله : التصوف في مصر و المغرب .◄24

ط . منشأة المعرف بالإسكندرية –ص..115

محمد مفتاح : المرجع السابق .ص.ص. 30–.31◄25

بيروت . يوسف محمد طه زيدان : الطريق الصوفي و فروع القادرية بمصر–دار الجيل –◄26

ط1–1991.ص.26

العربي – الحكيم الترميدي : المسائل المكنونة –تحقيق د.محمد إبراهيم الجيوسي–دار التراث ◄27

1400ه.ص123

المصدر السابق–ص143 .◄28

ابن الزيات : المصدر السابق –ص.321◄29

حسن جلاب : الحركة الصوفية في مراكش (ص.ص213 –214).المطبعة و الوراقة ◄30

الوطنية .مراكش.

ابن الزيات : المصدر السابق ص.318◄31

المصدر نفسه : ص318. ◄32